النشاط السياسي للأمير عبد القادر في بلاد الشام
١٨٥٦-١٨٨٣م

م.د. محمود صالح سعيد
جامعة الموصل / كلية الآداب

تاريخ الاستلام ٢٠١١/١٠/٣١ **تاريخ القبول** ٢٠١٢/٣/٧

الملخص

تعد شخصية الأمير عبد القادر الجزائري واحدة من الشخصيات البارزة التي ادت دوراً سياسيا وعسكرياً خطيراً ، ليس على مستوى الجزائر أو الوطن العربي فحسب، بل إن شهرته وصلت إلى معظم دول العالم لاسيما العالم الغربي، لذا فان التركيز عليه وتناول نشاطاته وجهوده تعد مسالة ضرورية للكشف عن جوانب غامضة من تاريخ النشاط السياسي هذا الرجل .

يحاول هذا البحث تسليط الضوء على حياة الأمير عبد القادر الجزائري ونشاطه السياسي أثناء إقامته في بلاد الشام، مستعرضاً في البداية نشأته وتكوينه السياسي وثقافته وكفاحه ضد الاستعمار الفرنسي والظروف التي عاشها بعد ذلك في المنفى في فرنسا عقب إخفاقه في مقاومة الاستعمار الفرنسي لبلاده واثر كل ذلك على تكوينه السياسي . كما حاول البحث أن يسلط الضوء على اهمية دوره ونشاطه السياسي في بلاد الشام، بعد قرار إقامته هناك، ورصد تلك المواقف لاسيما دوره في احداث عام ١٨٦٠ في دمشق وتداعياتها المحلية والدولية. ورصد البحث نشاط الامير عبد القادر وعلاقاته مع مختلف القوى السياسية المحلية والإقليمية والدولية عقب احداث عام ١٨٦٠م والدور الذي اداه في تلك المدة لحين وفاته عام١٨٨٣م.

أولاً: نشأته وتكوينه السياسي:

تعد نشأة الأمير عبد القادر الجزائري واحدة من أهم العوامل التي ساهمت في تكوينه السياسي وكانت نشأته الدينية من ابرز العوامل التي بلورت مواقفه السياسية من مختلف الأحداث ؛ لذلك فان الأمير عبد القادر بن محي الدين بن مصطفى بن محمد المختار الحسني[١] المولود في ٦ أيلول / سبتمبر عام ١٨٠٧م في بلدة (القيطنة)[٢] غربي الجزائر، عاش في كنف عائلة من الأعيان عُرف عنها التدين والخلق الرفيع.

فوالده محي الدين كان يحظى باحترام غالبية أعيان الجزائر وذلك لسخائه وكرم أخلاقه ودعته ، فضلاً عن كونه شيخاً للطريقة القادرية في الجزائر[٣]. ولم تكن زاوية الشيخ محي الدين مجرد مكاناً يتعلم الناسُ فيه القران الكريم والسنة النبوية الشريفة ؛ بل كانت ملاذاً للفقراء والمضطهدين أيضاً ، وقد أسهمت هذه المكانة في ارتقاء الأسرة علمياً واجتماعياً دفعت السلطات العثمانية في الجزائر إلى اتخاذ قرار يقضي بوضعه تحت الإقامة الجبرية خشية تعاظم نفوذه[٤].

في ظل هذه الظروف التحق الأمير عبد القادر بزاوية أبيه وعمره كان لا يتجاوز الأربعة أعوام ، تعلّم فيها مبادئ الشريعة الإسلامية ودراسة العلوم الأخرى كالرياضيات والتاريخ والجغرافية ، كما تمكن من حفظ القران الكريم ونال الإجازة العلمية في ترتيله ، فكان يرتّل القرآن الكريم في الجوامع والمناسبات منذ صباه[٥] . مما يدل على عناية والده الكبيرة به ، وجهوده في تثقيف ابنه وتعليمه العلوم السائدة . لذا نلحظ انه منذ ذلك الحين بدأ شغف الأمير بالعلم وجمع الكتب [٦].

أخذت مظاهر القوة والبأس تظهر على محياه ، فتزوج في سن مبكرة من ابنة عمه لالا خيرة وكان في الخامسة عشر من العمر[٧] . ويبدو أن الأمير عبد القادر كان يحظى بإعجاب والده، الذي بدوره قرر اصطحابه في رحلة لأداء فريضة الحج في عام ١٨٢٧م ، فكانت الرحلة من أهم المحطات التي أثرت حياة الأمير عبد القادر وزادت من خبرته. فزار معظم البلدان العربية المهمة مثل تونس ومصر ودمشق وبغداد والحجاز ، وحضر حلقات التفسير في الجامع الأموي لعدة شهور ، وكانت هذه الحلقات فرصة للاطلاع على الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية العامة للمشرق العربي وبالتالي تشكلت لديه أفكاراً واضحة عنها[٨].

أن نشأة الأمير الدينية أضفت عليه صفات أن يكون رجل مبادئ وأخلاق ، بل إن الصور التي نُشرت له يظهر فيها دائماً بزيه الإسلامي الصوفي البسيط ومسبحته بيده ليعطي الانطباع بأثر التربية الدينية على سلوكه .

في ١٢ حزيران/يونيو عام ١٨٣٠م نزلت القوات الفرنسية الجزائر بدعوى القضاء على حركة الجهاد البحري متذرعة بحادثة المروحة الشهيرة [٩] فأرسلت نحو ستين ألف مقاتل ومائة سفينة، واندلعت على إثرها حركة مقاومة رسمية وشعبية ضد الاحتلال، وصلت أوجها في ٢٤ تشرين الثاني / نوفمبر عام ١٨٣٢م حين تم انتخاب الأمير عبد القادر الجزائري لقيادة القبائل بعد اعتذار والده عن تسلم هذا المنصب لكبر سنه ، ولقب الأمير عبد القادر نفسه بـ(ناصر الدين) وكان يبلغ من العمر أربعةً وعشرين عاماً فقط[١٠].

لم يكن هذا الاختيار لمجرد وراثة الزعامة عن والده فحسب ؛ بل ما تمتع به من مزايا قيادية أهّلته لتبوء هذا المنصب . وبالتالي يمكن تقسيم مراحل حروب الأمير عبد القادر ضد الاستعمار الفرنسي بمرحلتين رئيسيتين:

الأولى ، وتبدأ بتوليه قيادة حركة المقاومة ، في عام ١٨٣٢م وتستمر حتى عقد معاهدة دي ميشال[١١] **(De Miechel)** في ٢٦ شباط / فبراير عام ١٨٣٤م، وفيها اعترفت فرنسا بزعامته على إقليم وهران وانتشرت فيها نفوذه في اغلب مقاطعات الجزائر .

والثانية ، فتبدأ بعد الهدنة التي استمرت نحو ست سنوات والتي تراجعت خلالها قوة الأمير عبد القادر وتنتهي باستسلامه في ديسمبر / كانون الأول عام ١٨٤٧م[١٢] .

اعتمد إستراتيجية الأمير عبد القادر في الحرب على الكر والفر، وكان يستعين بعدد قليل من القوات السريعة في ضرب القوات الفرنسية والانسحاب بسرعة. وقد لخص الأمير إستراتيجيته الحربية بالقول : " لا تحاربوا الفرنسيين في جمع كبير بل الاقتصار على مضايقتهم ومطاردة أجنحتهم وقطع خطوط مواصلاتهم والاستيلاء على معداتهم ووسائل نقلهم، ونصب الكمائن والهجوم المفاجئ لإذاعة الارتباك والحيرة والدهشة فيهم"[١٣] . وقد لقبه الفرنسيون بـ (أبي ليل وأبي نهار) لأنه كان يواصل القتال ليلاً ونهاراً [١٤] .

نجح الأمير عبد القادر في توحيد القبائل ، وجمع تحت لواءه نحو مائتي ألف مقاتل[١٥] . وكان على اطلاع بما يدور في فرنسا، فكان له تراجمه يبينون له مقاصد فرنسا عبر ما تنشره الصحف الفرنسية ، وكان يتابع نشاطات ومواقف الحزب الليبرالي المعارض ، لذلك كان يعتقد ان فرنسا ستجلو لا محالة وستتاح له الفرصة في تأسيس مملكة عربية مستقلة على غرار سلطنة مراكش في المغرب الأقصى[١٦] . ولعل هذا الحلم بقي يراود مخيلة الأمير خصوصاً بعد إقامته في دمشق ، وان فرنسا وجدت في ذلك ما يخدم مصالحها فدعمت هذا التوجه ، خصوصاً عقب أحداث عام ١٨٦٠م في جبل لبنان ودمشق – كما سنبين – .

تطورت خبرة الأمير عبد القادر طيلة المدة التي قضاها في الجزائر يقاتل ويفاوض فرنسا وكانت المعاهدات والاتفاقات المعقودة بينه وبينها من العوامل التي ساهمت في ترسيخ العلاقات السياسية بين الجانبين ، فقد استطاع في احدها[١٧] أن يحصل على اعتراف بدولته

ويتبادل القناصل مع فرنسا ، بل والأكثر من هذا ، الحصول على دعمها عند الحاجة أثناء إخضاعه للقبائل المتمردة على سلطته ، وبذلك أضحت العلاقات بين الجانبين ذات طابع سلمي ، وظهر الأمير بمظهر الصديق والحليف لفرنسا ، بل وحتى عندما توترت العلاقات بين الأمير وفرنسا لم يكتف بالمقاومة العسكرية ، بل حاول فتح جبهات سياسية جديدة لدعم موقفه ، من ذلك محاولته الحصول على دعم بريطانيا – العدو اللدود لفرنسا آنذاك – في عام ١٨٤٠م[١٨] .

كما كتب إلى سلطان مراكش وأيضا السلطان العثماني لكسب دعمهم في مواجهة فرنسا[١٩] ، كل ذلك يؤكد تطور الخبرة السياسية لدى الأمير عبد القادر ويعزز من مكانته كمقاوم ورجل سياسة من الطراز الأول[٢٠] .

وعلى أية حال لم يحصل الأمير على دعم أي دولة خارجية فاضطر أن يواجه فرنسا لوحده ، وضاقت السبل حوله ، وتكبدت قواته خسائر كبيرة ، عندئذ قرر الاستسلام في ٢٣ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٤٧م ، بعد أن كبد القوات الفرنسية نحو أربعين ألفا بين قتيل وجريح وخسائر مادية قدرت بأكثر من خمسمائة مليون فرنك[٢١]. وقد برر الأمير عبد القادر استسلامه بالقول : " رضا أهل الوطن بموافقة النصارى وعجزي، فأردت أن أستريح ... "[٢٢].

ثانياً: الأمير عبد القادر في المنفى ١٨٤٧-١٨٥٦م :

كان في استقبال الأمير عبد القادر أثناء استسلامه ، حاكم الجزائر العام الدوق دومال(Duc Dumal) ابن الملك لويس فيليب (١٨٣٠-١٨٤٨م) ، وبعض الجنرالات ، حيث سلّم الأمير سيفه إلى الدوق كعلامة على استسلامه . وقضت شروط الاستسلام أن يغادر الأمير صوب عكا أو مصر، لكن السفينة التي كانت تقله اتجهت به صوب ميناء طولون[٢٣]، جنوب شرق فرنسا ، على البحر الأبيض المتوسط ، وذلك بناءاً على توجيه من الحكومة الفرنسية ، وكانت أنباء استسلام الأمير عبد القادر عمت أرجاء فرنسا بحماس طاغ من الفرح والانتصار، ونوهت جريدة المونيتور (Moniteur) في عددها الثالث في كانون الأول/ يناير عام ١٨٤٨م بهذا الخبر، وجاء فيه : " إن إخضاع عبد القادر هو حادث في غاية الأهمية لفرنسا ، انه يؤكد طمأنينة احتلالنا . انه يسمح لنا أن نخفض عدد رجالنا والنقود التي كنا نرسلها منذ سنوات ، وهو يساهم في تدعيم قوة فرنسا في أوربا " [٢٤] .

وما أن وصل ميناء طولون حتى عرضت الحكومة الفرنسية عليه الإقامة ، متعهدين له بما يحتاج إليه من قصر ملكي وحرس شرفي وأبهة وحاشية جديرة بأمير، الأمر الذي أظهر مخالفة فرنسا الواضحة لبنود الاستسلام التي وقّعها الأمير عبد القادر معها في أن يغادر الجزائر إلى المشرق وليس إلى فرنسا فكان هذا الإجراء بمثابة بداية تنكر فرنسا لوعودها التي قطعتها للأمير عبد القادر ، حيث أظهرت الأحداث حرص فرنسا على إبقاء الأمير تحت

وصايتها كي تمنعه من تجديد مقاومته لها في المستقبل إذا ما أراد ذلك ، وقد عدَّ الأمير عبد القادر هذا العرض من خيانات فرنسا وكان فيما قاله :" لو كنّا نعلم أن الحال يؤول إلى ما إليه آل لم نترك القتال حتى تنقضي منّا الآجال " (٢٥) .

في فرنسا تنقل الأمير مع حاشيته في مدنها لمدة خمسة أعوام فمن قلعة الامالف (La Malgue) في طولون إلى قلعة بو (Pau) إلى قصر أمبواز (Amboise) في اورليان وسط فرنسا وطيلة هذه المدة كانت فرنسا تعرض عليه الإقامة لكنه في كل مرة يرفض ذلك رفضاً قاطعاً وكان فيما يقوله : " أنا لا أرى فرنسا إلا سجناً لي ولمن معي فلا فرق عندي بين طولون وباريس" (٢٦) .

وبالرغم من قيام ثورة عام ١٨٤٨م في فرنسا والتي أطاحت بالنظام الملكي فان النظام الجمهوري الجديد استمر بحبس الأمير ، رغم استبشار الأمير بهذا التحول ، حيق قام الأمير بتقديم طلب خطي إلى الحكومة الجديدة يتعهد بالامتناع عن العودة إلى الجزائر، لكن الحكومة الفرنسية الجمهورية رفضت ، فبقي الأمير في المعتقل في قصر امبواز حتى ١٦ تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٥٢م ، عندما زار الأمير لويس نابوليون (٢٧) (١٨٤٨-١٨٧٠م) قصر امبواز والتقى الأمير واعداً إياه بالسعي إلى إطلاق سراحه بأقرب فرصة ممكنة (٢٨) .

وبالرغم من أن الأمير عبد القادر الجزائري ارجع السبب وراء إطلاق سراحه إلى الضغط الذي مورس على الحكومة الفرنسية من الصحف الفرنسية ، التي تعاطفت مع الأمير كثيراً أثناء مدة إقامته في فرنسا ، وطالبت بتنفيذ الاتفاق ، الذي بموجبه استسلم الأمير للقوات الفرنسية (٢٩).

شارك الأمير عبد القادر بالتحولات السياسية التي شهدتها فرنسا ، لاسيما التحول من النظام الجمهوري إلى الإمبراطوري ، وقد ارتبط بعلاقة صداقة وثيقة بالأمير لويس نابوليون حتى أنه شارك مع حاشيته في الانتخابات التي جرت في فرنسا لاختيار الإمبراطور، وكان قد قرر انتخاب الأمير لويس نابوليون إمبراطورا ، وقد قام الإمبراطور لويس نابوليون بمنح الأمير عبد القادر سيفاً مكتوباً عليه ((من الإمبراطور نابوليون الثالث إلى الأمير عبد القادر بن محي الدين)) (٣٠) . ويمكن تفسير أسباب هذا التقارب بين الرجلين إلى سعي الإمبراطور لاستغلال مكانة الأمير عبد القادر واستثمارها في سياسته تجاه الجزائر .

على أية حال ، أنغمس الأمير طيلة مدّة حبسه في النشاط الفكري الذي كان سائدا في فرنسا آنذاك ، فقابل رجال سياسة وقادة فكر ورجال دين ، وناظرهم ودخل معهم في نقاشات حول مختلف القضايا الأخلاقية والدينية والفكرية والتاريخية ، وكان من نتيجة هذا الاهتمام تأثر الأمير عبد القادر الجزائري بطبيعة المناقشات ، ومسالة قبول الآخر ، لاسيما في نظرته إلى المجتمعات غير الإسلامية ، فأصبح هناك تطور واضح في نظرته تجاه هذه المسالة :

من نظرة تقليدية إلى نظرة أكثر تساهلاً مع غير المسلمين . وقد دفعته هذه المحاورات والنقاشات إلى تأليف الرسائل والكتب التي تدافع عن الإسلام ضد خصومه وتدحض وجهة نظر الطاعنين به ، ومن ذلك كتاب ((**المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام من أهل الباطل والإلحاد**)) . وكتاب ((**ذكرى العاقل وتنبيه الغافل**)) وهو كتاب ألّفه لحساب الأكاديمية الفرنسية عندما انتخبته عضواً فيها، وقد ضمنه علوماً شتى شملت التاريخ والفلسفة والدين والإصلاح الاجتماعي والأخلاق [٣١] .

في ٢١ كانون الأول/ ديسمبر ١٨٥٢م سمحت الحكومة الفرنسية للأمير عبد القادر بمغادرة فرنسا ، بعد أن تعهد خطياً بعدم العودة إلى الجزائر ، فاتجه إلى استانبول ، وهناك حظي بمقابلة السلطان العثماني عبد المجيد (١٨٣٩-١٨٦١م) وعدد من الوزراء والأعيان وسفراء الدول الأجنبية ، ثم غادر بعد ذلك إلى بورصه [٣٢] ، وهناك زاره العديد من المهاجرين الجزائريين ، وكان منهم مقيمين في دمشق [٣٣]. ويبدو أن دمشق كانت في ذلك الوقت مقراً لإقامة العديد من أبناء الجالية الجزائرية ، ولعل هذا السبب كان من بين الأسباب التي دفعت الأمير عبد القادر ليتخذ قراره النهائي الاستقرار فيها بدلاً من قراره السابق الإقامة في عكا أو الإسكندرية .

ثالثاً: السنوات الأولى لإقامة الأمير عبد القادر في دمشق ١٨٥٦-١٨٦٠م :

لم تدم إقامة الأمير عبد القادر في مدينة بورصة طويلاً، فقد ملَّ الإقامة فيها ، ولعل بعضُ أسبابِ ذلكَ ترجعُ إلى أن قلة من سكان المدينة يجيدون التحدث باللغة العربية ، كما إن الأمير عبد القادر وجد نفسه مهملاً في بناية مهدمة كانت الحكومة العثمانية قد خصصتها له، وكانت هذه البناية لا تنسجم مع وضعه السابق في فرنسا في قصر امبواز، الذي كان قصراً للملك لويس الحادي عشر، حيث كان محاطاً بالعناية من طرف الحكومة الفرنسية وأخيرا انتهز وقوع زلزال كبير في بورصة عام ١٨٥٥م فطلب السفر إلى فرنسا ليتفق معها على مكان آخر لإقامته[٣٤]. فالأمير عبد القادر كان ملتزما بوعده في عدم العودة إلى الجزائر، وأن إقامته كانت تعتمد على موافقة الحكومة الفرنسية قبل كل شيء .

من جهة ثانية كانت الحكومة الفرنسية قد خصصت نفقات معينة للأمير بلغت نحو أربعة الآف جنيه استرليني سنوياً ، أي ما يعادل نحو مائة وخمسين الف فرنك فرنسي [٣٥] ينفقها على نفسه وعلى مرافقيه وحاشيته، فكان لابد من التشاور مع الحكومة الفرنسية حول المكان الجديد الذي ينوي الإقامة فيه ،[٣٦] وقد تم الاتفاق على اختيار مدينة دمشق كمكان جديد للإقامة .

كانت تربط الأمير عبد القادر بالإمبراطور الفرنسي علاقات متميزة . فبينما كان الأمير متواجداً في باريس ، في هذا الوقت ، وصلت الأنباء بسقوط مدينة سبيستبول أثناء

حرب القرم[٣٧] ، وشكّل سقوطها انتصاراً للحلفاء ، (الدولة العثمانية وفرنسا وبريطانيا) على روسيا، فحضر الأمير عبد القادر بنفسه احتفالاً بهذه المناسبة في كنيسة نوتردام التاريخية بناءاً على دعوة من الإمبراطور[٣٨] ، مما يدلل على قوة العلاقة بين الشخصين .

أستأذن الأمير عبد القادر من السلطان العثماني التوجه إلى دمشق والإقامة فيها [٣٩] ، وصل الأمير إلى بيروت في ٢٤ كانون الأول / نوفمبر ١٨٥٦م ، وهناك وافته وفود من بعض اسر جبل لبنان كآل ارسلان يعرضون عليه الإقامة عندهم ، وتجمع الدروز للترحيب به أثناء مروره وصعوده جبل لبنان باتجاه دمشق ، وكانوا يطلقون الرصاص في الهواء ترحيباً به ، حيث كانوا معجبين بشخصيته وببطولته في مقاومة الاحتلال الفرنسي للجزائر [٤٠] ، وعند وصوله دمشق استقبله واليها محمد نديم باشا والأهالي[٤١]، مما يؤكد معرفتهم المسبقة بوصوله ، وأنهم مرحبين بقدومه ، ولعل الجالية الجزائرية المقيمة هناك كان لها دور في إشاعة خصال الأمير الحميدة، من كونه رجلاً شريفاً ومجاهداً ومدافعاً عن الهوية العربية الإسلامية للجزائر[٤٢]، وبحسب المؤرخ تشرشل – الذي عاصر الأحداث – فإن دخول الأمير إلى دمشق كان من الأهمية بحيث انه لم يدخل دمشق عربي على هذا النحو منذ صلاح الدين الأيوبي[٤٣] .

اتخذ الأمير عبد القادر الجزائري من منطقة العمارة في دمشق محل إقامة له ولحاشيته في دارين خصصتا له من قبل الحكومة العثمانية . وقد أخذت الوفود بزيارته والقدوم إلى مجلسه منهم الكثير من الجزائريين المنفيين[٤٤] .

وبالاستناد الى سجلات المحاكم الشرعية المعتمدة من احد الباحثين فقد ازداد عدد المغاربة المقيمين في مركز ولاية دمشق ، عقب قرار الأمير عبد القادر الإقامة فيها ، وقد توزعوا في سائر أنحاء اللواء في أحياء باب سُريجة وباب المصلّى ومحلة الميدان والشاغور والقنوات [٤٥] وفوق كل هذا أصبح لهم محلة خاصة بهم أُطلق عليها اسم محلة (الجزايرلية) أو المغاربة وقد بلغ عدد المهاجرين الجزائريين نحو خمسة عشر ألفاً [٤٦].

وبعد مدّة ليست بالطويلة أصبحت أسرة الأمير عبد القادر واحدة من أشهر خمس عائلات مالكة للأراضي في دمشق ومشتهرة بالعلم [٤٧] ولتشكل الزعامة السياسية الحقيقية لدمشق بعد عام ١٨٦٠م . ومرجع ذلك إلى وفرة الأموال التي حصل عليها الأمير عبد القادر من الحكومة الفرنسية ، فقد زاد الراتب السنوي من (١٥٠) ألف فرنك ليصل إلى (٣٠٠) ألف فرنك وهو مبلغ خيالي في ذلك الوقت[٤٨]، فاخذ الأمير شراء الدور والقرى والأراضي بهذا المبلغ ليعزز به مكانته كأحد ابرز الأسر المتنفذة في دمشق ، ووصل الأمر بعائلة الجزائري حداً أنها دخلت ميدان التنافس على منصب الأشراف في دمشق ، بوصفهم من الأشراف المالكية الوحيدة في دمشق[٤٩].

من جهة ثانية عينت الحكومة الفرنسية المترجم بولاد (Bullad) لمرافقة الأمير في دمشق، والحقيقة أنه جاء ليتجسس على الأمير ويكتب التقارير إلى الحكومة الفرنسية بذلك، وكان بولاد قد عُيّن منذ إقامة الأمير في قصر أمبواز ، مما يعني أن الشكوك والتخوفات لا تزال قائمة حول الامير عبد القادر ، خاصة وأن الجزائريين المقيمين في دمشق كانوا يشكلون مصدر قلق بالنسبة لفرنسا ؛ لذلك نلحظ أن فرنسا عارضت قرار الأمير عبد القادر زيارة بيت المقدس بمفرده ودون علم القنصلية الفرنسية ، وطالبته بضرورة الحصول على رخصة مسبقة من الحكومة الفرنسية ، بصفته شخص منفي وتحت الاقامة الجبرية ، لذلك أحس الأمير انه مازال في واقع الأمر سجيناً . وقد أزعج هذا الأمر الأمير عبد القادر كثيراً ، لذلك كانت العلاقات سيئة مع القنصلية الفرنسية في دمشق ، وكان كل منهما يبدي حذره وارتيابه من الآخر ، وكان الأمير قد طلب بادئ الأمر تسريح المترجم بولاد ، وقد تم أخيرا قبول طلبه أواخر عام ١٨٥٧م ، وبالرغم من ذلك فإن علاقات الأمير عبد القادر بالقنصلية الفرنسية أستمرت بالفتور ، وكان الأمير عبد القادر أثناء المناسبات يكتفي بتحرير بعض الرسائل إلى الإمبراطور نابوليون الثالث وبعض وزراءه [٥٠] .

إن جو الريبة والشك الذي ساد العلاقات بين الأمير عبد القادر والقنصلية الفرنسية دفعت السلطات الفرنسية وتحديداً وزارة الحرب إلى توجيه تعليمات قطعية في ٧ تشرين الأول / أكتوبر ١٨٥٧م تشدد على :" أنه من ألان فصاعداً ستصبح مراقبة الأمير عبد القادر في عهدة قنصلية الإمبراطور بدمشق ، والتي طُلب منها أن تبلغني – يعني وزير الحربية الفرنسي– بدقة كل ما

يصلها عن عبد القادر ، وكذلك بقية الجزائريين المقيمين أو المارين بسوريا ، من معلومات يمكن أن تهم وزارتنا أو وزارة الخارجية"[٥١].

أكتفت التقارير الواردة من القنصلية الفرنسية في دمشق برصد اجتماعات الأمير عبد القادر ذات الطابع الديني الصرف ، والتي عكست اهتماماته في تلك المدة المبكرة من إقامته . إن معرفة الأمير عبد القادر العميقة بالشريعة الإسلامية وماضيه المشرق وثروته المادية المدهشة أن يلتف حوله عدد كبير من المغاربة وبعض شبان دمشق ، الذين باشروا حضور حلقات دروسه الدينية ، لذا فإن السنوات الأولى من أقامته في دمشق لم تسجل أي حدث أو نشاط سياسي بارز يمكن الأشارة إليه ، [٥٢] فقد كان الأمير يقضي معظم وقته في المطالعة والصلاة ومجالسة العلماء [٥٣] ، غير أن أحداثا ستأتي ستغير الأوضاع ويكون للأمير موقف حاسم منها.

رابعاً: النشاط السياسي للأمير عبد القادر في أحداث عام ١٨٦٠م :

تعد أحداث عام ١٨٦٠ الطائفية في دمشق ذات خلفيات سياسية واجتماعية واضحة ، وكان للحكم المصري في بلاد الشام (١٨٣١-١٨٤٠م) والسياسة العثمانية والفتنة في جبل لبنان من ابرز الدوافع التي أججت هذه الأحداث [٥٤].

اندلعت في ٩ تموز/ يوليو عام ١٨٦٠م أحداث طائفية بين أهالي دمشق من مسلمين ومسيحيين ودروز ويهود كامتداد للأحداث الطائفية التي وقعت في جبل لبنان [٥٥]. وكانت الفئات الاجتماعية التي شاركت في الأحداث تتألف من التجار والباعة والزعماء العسكريين المحليين والمهاجرين وسكان الأرياف القاطنين حديثاً في ضواحي دمشق وأعداد كبيرة من الحرفيين العاطلين عن العمل[٥٦]. من جهة أخرى فان هذه الأحداث لم ترق لفضلاء وعقلاء المسلمين فكانوا بالمقابل يحثون الناس على التعقل والسكينة[٥٧].

كانت أحداث ١٨٦٠ في جبل لبنان تصل الى دمشق تباعاً، وازداد التوتر في دمشق بعد أحداث مدينتي (حاصبيا) و (راشيا) القريبتين من دمشق ، ووصول بعض لاجئيها المسيحيين إلى دمشق ، وعندما سقطت مدينة (زحلة) بيد القوات الدرزية في ١٨ حزيران / يونيو ١٨٦٠م عبّرت مجموعات دمشقية عن سرورها بإقامة الزينة ، غير أن وجهاء المسلمين وأرباب الفضل تدخلوا وأطفئوا الأنوار واخذوا يحذرون الناس من مغبة هذه الأعمال الاستفزازية[٥٨].

أما الأمير عبد القادر فقد كان على رأس المعارضين ، فشخصيته وثقافته تأبى الانجرار وراء هكذا أعمال ، كما أن موقفه من الأقليات كان واضحاً منذ أن كان في الجزائر، فهو دائما إلى صفهم يساندهم ويقف إلى جانبهم [٥٩]، لذلك عندما لم يتمكن من إيقاف الفتنة في جبل لبنان أصرّ على بذل جهوده لحماية النصارى في دمشق ، ففي أثناء وصول بعض اللاجئين النصارى إلى دمشق كانوا قادمين من مدينتي (حاصبيا) و (راشيا) أرسل إليهم الأموال والمساعدات وأسكنهم في داره في حي القنوات لإيوائهم وقام بجمع التبرعات لهم من أتقياء المسلمين[٦٠].

كان الأمير عبد القادر يخشى من امتداد الفتنة إلى دمشق لذا سعى إلى منعها ، فأرسل إلى بعض مشايخ الدروز يدعوهم إلى الكف عن إراقة الدماء وان يكونوا رحماء ومعتدلين ، غير أن بعض الدروز أبوا ، ولم يكتفوا بذلك ، بل عرضوا على بعض الجزائريين المقيمين في دمشق أن ينضموا إليهم في حملتهم ضد المسيحيين [٦١].

كان أتباع الأمير عبد القادر ينقلون إليه الأخبار يومياً ، وما كان يشاع من أخبار ، وبناءاً على ذلك سعى الأمير إلى منعها ، فالتقى والي دمشق العثماني احمد باشا (١٨٥٩-١٨٦٠م) وأحاطه علماً بما يجري ، وطلب منه منع وصول الاضطرابات إلى دمشق[٦٢]،

وتوجه بنفسه إلى العلماء والأعيان يترجاهم أن يستخدموا نفوذهم لتفادي تطور الأحداث ، وكتب رسائل مستعجلة في نفس المعنى إلى علماء حمص وحماه[٦٣] ، وقد جاء في إحداها : " لا تغتروا ، فان أوربا لا يمكن لها أن تكون عديمة الإحساس للمآسي التي تلحقونها بالمسيحيين . اعملوا رأيكم وفكروا ، ولا تقوموا بحركة من شأنها إقامة أسقف مستقبلاً في جامعكم الكبير الجامع الأموي ، والذي كان سابقاً كنيسة مسيحية "[٦٤].

وعندما وصلته أنباء تقدم مجموعات درزية مسلحة إلى دمشق لحث الأهالي على الهجوم على النصارى في أيار / مايس أرسل رسالة أخرى إلى مشايخ الدروز جاء فيها :" إلى شيوخ الدروز في جبل لبنان وفي سهول وجبال حوران ، إننا دائماً ندعوكم بالسعادة الدائمة والهناء المستمر . إنكم تُدركون صداقتنا لكم ، واهتمامنا بالصالح العام لجميع عباد الله ، فأصغوا إلى ما نقوله لكم واقبلوا واعتبروا بنصيحتنا إليكم . إن الحكومة العثمانية وجميع الناس يعرفون عداوتكم القديمة نحو مسيحيي جبل لبنان ، وقد تتصورون أن الحكومة لن تحمّلكم كل مسؤولية الحرب التي تدور ألان بينكم وبينهم ، وقد تقبل الحكومة عذركم ، ولكنكم إذا قمتم بهجوم على مكان لم يكن سكانه في يوم من الأيام أعداء لكم ، فإننا نخشى أن يكون هذا التصرف سبباً في قطيعة خطيرة بينكم وبين الحكومة .. إن الحكيم هو الذي يقرأ العواقب قبل أن يخطو خطوة في الطريق إن بعض فرسانكم قد قاموا بالنهب في ضواحي دمشق ، وان مثل هذا السلوك غير جدير بقوم تميّزوا بشعورهم الخيّر وسياستهم الحكيمة، إننا نكرر لكم بأننا لا نسعى إلا لخيركم وإننا نتألم لأي خدش يصيب اسمكم"[٦٥].

أخذ الأمير عبد القادر ، من جهة ثانية ، يتردد على الوالي احمد باشا ، ويعبر له عن مخاوفه ، وكان الوالي يخفف من ذلك ، لكن الأمير أصرّ على طلبه باستلام أسلحة وتوزيعها على أتباعه لحماية النصارى ضد أي عمل عدواني ، وفي النهاية وافق الوالي ، وقام الأمير بدورها في توزيعها على أتباعه[٦٦].

تألف أتباع الأمير عبد القادر من الجزائريين الذي وصلوا إلى دمشق بإذن منه ، وتجدر الإشارة أن وزير الحربية الفرنسي ، وعقب قرار نفي الأمير من الجزائر ، كان قد سمح بتجنيد قوات من أكثر من ألف شخص من الجزائريين ، أرسلهم إلى دمشق ، وكان هذا الفريق يعد من اخلص الإفراد وأكثرهم طاعة للأمير عبد القادر [٦٧] ، مما يقدم أشارات مهمة عن مخطط فرنسي يستهدف إقامة مناطق نفوذ له عبر إيجاد جاليات يرتبط ولاءها بفرنسا أكثر من غيرها . من جهة ثانية يعزز هذا الإجراء الاعتقاد بأن ثمة مشروع فرنسي تحاول الإدارة الفرنسية تسويقه في بلاد الشام ، خصوصاً وأن ثمة مشروع فرنسي كان قد سبق هذا هدف إلى تهجير نصارى جبل لبنان من الموارنة إلى الجزائر [٦٨].

لم يكتف الأمير عبد القادر بالتردد على والي دمشق ، بل زار القنصل الفرنسي في دمشق المسيو لانوس (Lanusse) وطلب منه مده بالمال والسلاح ، وقد تردد القنصل في البداية ، لكنه – وتحت وطأة الإحداث – أذن للأمير أن يقوم بكل التكاليف التي يراها ضرورية ، وتأكيداً لحماية الأمير عبد القادر للجالية الفرنسية ، طلب من القنصل أن يحمل إليه العلم الفرنسي ويثبته على منزله كعلامة على استعداده لحماية رعايا الجمهورية الفرنسية[٦٩].

ومنذ اليوم الأول من الأحداث في دمشق بعث الأمير عبد القادر إلى كل أتباعه يطلب منهم الحضور للمساعدة في حماية النصارى ، وقام بتفريقهم في أحياء المدينة لإنقاذ النصارى ، من جهة ثانية منع مجموعة من أشقياء دمشق الذهاب إلى الحي المسيحي ، وكان أتباع الأمير يأتون بالعائلات المسيحية إلى دار الأمير عبد القادر [٧٠]. ولما علم النصارى بموقف الأمير هذا راحوا يفرّون إلى منزله من تلقاء أنفسهم ويقيمون في بيته ، حتى غصت داره بهم فقام الأمير بإخلاء البيوت المجاورة لداره وجعلها مأوى لهم ، وكان من جملة اللاجئين النصارى معظم قناصل الدول الأجنبية[٧١] ، حيث هرب القناصل مع عائلاتهم منذ اليوم الأول تاركين قنصلياتهم تحترق ، وكان القنصل البريطاني الوحيد الذي لم تتعرض قنصليته إلى الحرق ، لان قنصليته كانت في حي إسلامي ، ولكنه زيادة في الحيطة أرسل إلى الوالي يطلب منه إرسال جنود لحراسة القنصلية ، كما أرسل إلى الأمير عبد القادر يطلب منه الحماية أيضا فقام الأمير عبد القادر بإرسال سبعة عشر جندياً جزائرياً لحمايته[٧٢].

ولما لن تعد المكان تسمح بالمزيد من اللاجئين قام الأمير بإرسال مجموعات منهم إلى القلعة بنفسه . وكان الأمير عبد القادر ينفق على اللاجئين كل ما يحتاجون إليه ، وكان يعاضده في هذا العمل عدد كبير من علماء ووجهاء دمشق أمثال : الشيخ محمود وأخوه الشيخ اسعد حمزة أفندي والشيخ سليم العطار[٧٣].

حاول بعض الافراد الهجوم على النصارى اللاجئين في بيت الأمير عبد القادر لكن الأمير دافع عنهم ، ولم يسلم أي احد منهم ، وهدد المهاجمين بإطلاق النار عليهم إن هم تجرئوا واقتحموا المنزل . من جهة ثانية طلب الوالي من النصارى دخول القلعة لحمايتهم ولما سمع الامير عبد القادر بوجود تجمعات مسلحة في ضواحي دمشق تروم الهجوم على النصارى ، خرج إليهم والتقى بهم ، ولما لم يستجيبوا الى ندائه بالانسحاب هددهم بأنه سوف يستعمل الرصاص إن هم تجرئوا واقتحموا القلعة التي يتحصن بها النصارى ، عند ذلك ادركوا موقف الامير عبد القادر الحازم تجاه مسالة حماية النصارى واضطروا إلى التراجع[٧٤] ، فكان هذا الموقف اثر بالغ في التقليل من الخسائر البشرية والمادية التي كادت تصيب سكان مدينة دمشق .

تجدر الإشارة إلى أن أحياء النصارى كانت في بداية الأحداث تحت حماية الجنود العثمانيين ، لكن بعد تطور الأحداث أمر الوالي جنوده بالانسحاب ، ولعل مرد ذلك راجع إلى ضعف الحاميات العثمانية في دمشق وقلة عددها ، ومن اجل ذلك سارع الأمير عبد القادر بملء الفراغ الأمني في أحياء النصارى ، فكان يحرس شوارع النصارى ، وكان يقضي أكثر ليالي هذه الأحداث ، التي دامت نحو تسعة ايام ، ساهراً والبندقية في يده حرصاً منه على من هم في حماه ، فكان إذا غلب عليه النعاس أسند رأسه إلى فوهة البندقية قليلاً [٧٥].

حظي الأمير عبد القادر بالتكريم ، نتيجة للجهود التي بذلها في حماية النصارى ، فبعثت الدول الأوربية الأوسمة ورسائل الثناء ، ونوهت به كبريات الصحف العالمية[٧٦]، فأرسلت فرنسا النطاق الكبير المعروف بـ(وسام الشرف)[٧٧]، وأرسلت روسيا القيصرية (صليب النسر الأبيض الكبير) ، وأرسلت بروسيا (صليب النسر الأسود الكبير) ، وأرسلت اليونان (صليب المنقذ المسيح الكبير) ، وأرسلت الدولة العثمانية إليه (الوسام المجيدي) من الدرجة الأولى، واهدت بريطانيا والولايات المتحدة الأميركية بندقية ذات فوهتين مرصعة بالذهب ، وكل هذه الهدايا مرفقة برسائل الشكر والعرفان على الصنيع الذي قام به الأمير عبد القادر الجزائري ، واعترافاً منهم بالجهود الكبيرة التي بذلها في حماية النصارى[٧٨].

انطلاقا من عام ١٨٦٠م أصبح الأمير عبد القادر معروفاً على نطاق الغرب ، فقد اكتشفه الأوربيون من جديد وبدئوا التنويه بخصاله الحميدة التي جلبت إليه المزيد من التقدير والاحترام فأضافت إلى ماضيه كمجاهد صفة حامي نصارى الشرق.

خامساً: النشاط السياسي للأمير عبد القادر بعد أحداث عام ١٨٦٠م :

بعد أن هدأت الأحوال ، عاد الأمير يعكف على المطالعة والصلاة والتدريس في الجامع الأموي والتصدق على الفقراء . وقد اشتهر بين سكان دمشق بالتقوى والورع ، وكان بعض المتصوفة يعدونه مكاشفاً – أي مكشوف عنه الحجاب ويعلم بعض الأمور الغيبية – وانزله البعض منزلة الشيخ محي الدين بن العربي[٧٩]، الذي كان الأمير عبد القادر من أشد المتحمسين له والمتأثرين به[٨٠] .

ولّد موقف الأمير عبد القادر من أحداث دمشق عام ١٨٦٠م أثراً كبيراً في نفوس أهالي الشام ، فكان يحظي بمكانة رفيعة في قلوب أعيان دمشق . ففي ١٠ نيسان/ ابريل ١٨٦٥م سافر الأمير عبد القادر إلى استانبول وأجرى محادثات مع المسؤولين العثمانيين أسفرت عن حصول الأمير على عفو السلطان عن المنفيين بأسباب حوادث دمشق عام ١٨٦٠م ، وقد دل هذا العمل على علو منزلته عند المسؤولين العثمانيين ، بل إن مكانة الأمير كانت معروفة ليس في بلاد الشام أو استانبول بل حتى بقية الولايات العثمانية . فعندما قرر في كانون الثاني / يناير عام ١٨٦٣م أداء فريضة الحج استقبله شريف مكة عبدالله بن

محمد عون (١٨٥٣-١٨٧٧م) بكل رعاية وإكرام وخصص له غرفتين في فناء الحرم الشريف[٨١].

من جهة ثانية ، دفعت مكانة الأمير عبد القادر الكبيرة في عيون الغرب أحد المنظمات وهي منظمة البنائين الأحرار (الماسونية) [٨٢] السعي إلى كسبه لما تمثله مكانة الأمير عبد القادر من دور يعزز مكانتها في العالم ، وفي هذا الاطار انتهزت فرصة وجوده في الإسكندرية ، عقب أداءه فريضة الحج ومن ثم أوفدت هيئة من أعضاءها عرضت عليه مبادئها ، التي كانت في ذلك الوقت ذات غايات انسانية ، فانتظم فيها بتاريخ ١٨حزيران/ يونيو ١٨٦٤م ضمن محفل الأهرام[٨٣] ، وحصل على لقب (ماسوني) حر ومقبول[٨٤] .

الواقع إن الأمير عبد القادر كان ينظر إلى هذه المنظمة نظرة تختلف عن حقيقتها ، فقد كان يعدها منظمة انسانية تحمل اهداف نبيلة تصب في خدمة الانسانية ووجد ان مبادئها لا تتقاطع مع مبادئ الاسلام التي يتبناها في حياته ، لذلك انتظم بها نظراً لما تملكه هذه المنظمة من سمعة واهمية على المستوى الغربي . ويتضح ذلك بجلاء في رده على احدى الرسائل التي بعث بها احد قادة المحفل الماسوني يشرح للامير عبد القادر فهمه لهذه المنظمة واهدافها ويظهر فيها قناعاته ، وقد جاء في رسالته الجوابية بتاريخ ٢ تشرين الأول/ أكتوبر ١٨٦٤م : " وأني عرفت أن أساس هذه الجمعية "الشريفة" هو جلب النفع لعباد الله تعالى ودفع الضر عنهم والسلوك على مقتضى الإنسانية والأخوة البشرية.. أسأل الله تعالى أن يشيد أركانها ويكون حافظاً لها وحامياً "[٨٥]. اذن فالمنفعة لعباد الله والسلوك بمقتضى الانسانية هما السبيلين اللذين دفعا الامير عبدالقادر للانتظام في سلك هذه الجمعية ، وقد جاهر الامير بانتمائه لها في عام ١٨٦٤م فكان اول شخص في بلاد الشام يعلن انضمامه لهذه المنظمة [٨٦]، وقد حاول احد أحفاد الأمير عبد القادر- فيما بعد- تبرئة جده من الماسونية ، بالقول أن الماسونية عرضت على الأمير مبادئها لكن الأمير شكرها . غير أن من يدحض هذا الرأي هو أن الأمير عبد القادر نفسه كان قد صُوّر بالشعارات الماسونية التي لا يلبسها سوى حامل الدرجات الماسونية والمشتغلين بها[٨٧] وكذلك الرسالة الجوابية التي ارسلها الامير الى احد قادة المحفل الماسوني في مصر ؛ لذا فإن مسالة انتماء الأمير للماسونية هو أمر يصعب الشك فيه ، ومع هذا فقد أدى انتماء الأمير عبد القادر للمنظمة على المساعدة في انتشار سمعته في العالم أكثر ؛ لما تملكه هذه المنظمة من فروع لها في كافة أنحاء العالم ، ومما زاد من أهميته ليس على المستوى الإقليمي بل العالمي . وهذا ما يظهر واضحاً في تشرين الثاني / نوفمبر ١٨٦٩م حين كان الأمير من جملة المدعوين من مشاهير العالم لحضور الاحتفال بافتتاح قناة السويس ، التي حضرها ملوك وأمراء ووزراء ومشاهير العالم[٨٨].

من جهة أخرى سارعت بعض الدول الأوربية في استغلال مكانة الأمير عبد القادر من اجل توظيفها لمصلحتها السياسية ، من ذلك ما صرّح به الإمبراطور لويس نابوليون بان الجزائر ليست مستعمرة بل مملكة عربية، وذلك بغية التخفيف من وطأة الاحتلال الفرنسي للجزائر ، ففتح هذا التصريح الباب لنقاش طويل بين الكتاب والمحللين حول إمكانية تولي الأمير عبد القادر حكم الجزائر نائباً عن فرنسا، أو أن يتولى حكم الصحراء الجزائرية [٨٩]، من جهة ثانية ولما كانت الحملة العسكرية الفرنسية، عام ١٨٦٠م على بلاد الشام، في أعقاب حوادث الستين ، في أوج نشاطها، كانت الدوائر السياسية الفرنسية تسعى للترويج إلى مشروع سياسي ممثل بالسيطرة على بلاد الشام وفك ارتباطه بالدولة العثمانية والسعي إلى تأسيس خديوية جديدة على غرار خديوية مصر، مرتبطة أسمياً بالدولة العثمانية ، لكنها منفصلة عملياً وخاضعة للنفوذ الفرنسي، فكان لابد من أجل إنجاح هذا المشروع من أدوات وشخصيات ضرورية لتنفيذه ممثلة بالضغوط الفرنسية على الدولة العثمانية من أجل تفكيكها وتصديع بناها السياسية والاقتصادية والعسكرية والطائفية، ولتتمكن بعدها من إنفاذ مشروعها الاستعماري الانفصالي[٩٠].

أما الشخصيات ، فكانت ترى في شخصية الأمير عبد القادر الجزائري خير من يمثل هذا المشروع نظراً لما يتمتع به من مكانة مرموقة بين المسلمين عموماً وسكان بلاد الشام خصوصاً واستثمار البعد الديني بوصفه من سلالة الرسول محمد (ﷺ) وبالتالي إنفاذ سياستها من خلاله في بلاد الشام ، بعد أن تم التفاهم معه على هذا الأساس أثناء نفيه في فرنسا[٩١].

وجدت فرنسا في الأمير عبد القادر حليفاً قوياً يؤمّن لها مشروعها في سلامة قناة السويس وتستكمل به وسائلها الإستراتيجية على سواحل المتوسط وطريق الهند ، بالإضافة إلى ما ستجنيه تجارتها من فوائد في إيجاد أسواق تصرّف به بضائعها[٩٢].

وكانت الأوساط الدبلوماسية في الخارجية الفرنسية قد نشرت في باريس عام ١٨٦٠م ، أي إبان الأحداث في بلاد الشام ، كتاب لم يذكر اسم واضعه عنوانه (عبد القادر ، إمبراطور البلاد العربية) تضمن دعوة صريحة لسلخ بلاد الشام عن الدولة العثمانية ، وإعلان دمشق عاصمة للدولة العربية الجديدة ، ومما جاء فيه : " يجب خلق توازن شرقي ، وأول شروط هذا التوازن تحرير البلاد العربية من البحر الأبيض المتوسط إلى المحيط الهندي ومن البحر الأحمر إلى الخليج العربي.. ومن هذه البلاد يمكن تكوين إمبراطورية ، ولكن هذه الإمبراطورية تفتقر إلى رجل يقوم بشؤونها فلماذا لا يكون هذا الرجل هو الأمير عبد القادر ؟ فصيته قد امتد وانتشر وهو عربي وسيجد في العرب كل العناصر التي يمكن أن تتجاوب مع مطامعه وأخلاقه الكريمة وشجاعته وهو في فتنة سوريا الأخيرة علّم الاوربيين حقائق القرآن كما يجب أن تفهم وكما يجب على المؤمن أن يطبقها " [٩٣] .

وفي محفوظات وزارة الحربية الفرنسية رسالة مؤرخة بتاريخ ٣٠ نيسان / ابريل ١٨٦١م موجهة الى الجنرال ديكرو (Ducrot) رئيس أركان الحملة العسكرية الفرنسية على بلاد الشام جاء فيها : " إن الإمبراطورية العربية يجب أن تشمل الدويلات والإمارات التابعة أو المستقلة القائمة ألان في شبه الجزيرة العربية ، وان تكون رئاستها لعبد القادر على أن يستبقى ، اذا قضت الضرورة ، الأمراء والحكام الحاليين ويعلن الضمانات المدنية والسياسية لجميع الطوائف ، ويطبق قانوناً تتفق أحكامه وأحكام قانون لويس نابوليون والنظام العشري الفرنسي ، ويفصل السلطات الدينية عن السلطة السياسية ويُستحسن أن تكون دمشق أو بغداد العاصمة السياسية للإمبراطورية .. ويجب أن تُشق قناة السويس في الحال " [٩٤].

من جهة أخرى رفض الأمير في عام ١٨٧٠م عرضاً من الحكومة البروسية ، التي كانت تخوض حرباً ضد فرنسا ، بتوليته حكم الجزائر إن هو قرر الثورة على الحكم الفرنسي في الجزائر ، لكن إخلاص الأمير للعهد الذي قطعه على نفسه بعدم الذهاب إلى الجزائر، جعله يرفض هذا العرض ، ووصل احترامه للعهد الذي قطعه على نفسه انه تتكّر لابنه محي الدين ، الذي سافر إلى الجزائر للمشاركة في ثورة عام ١٨٧٠م ، فقد طلب الأمير من القنصل الفرنسي في طرابلس الغرب السعي لإعادة ولده إلى دمشق[٩٥].

أن ذروة ما وصلت إليه مكانة الأمير عبد القادر ونشاطه السياسي في بلاد الشام مشاركته في نشاطات الجمعيات والحركات السياسية العربية ذات الطابع القومي . فقد باشر بعض وجهاء بلاد الشام ، في خِضم اندلاع الحرب الروسية – العثمانية عام ١٨٧٧م ، والهزائم التي منيت بها الدولة العثمانية ، وما شكّله ذلك من خطر على مستقبلها واحتمالات اقتسام الدول الأوربية لممتلكاتها ، أن سارعت بعض الوجاهات والأعيان إلى وضع خطط وإجراء اتصالات مع أعيان المدن في بلاد الشام لاسيما ، حمص واللاذقية وجبل عامل وبيروت ودمشق وصيدا وحماه وحلب ، للاجتماع بالأمير عبد القادر الجزائري في دمشق[٩٦].

وقد أسفرت هذه الاتصالات والمداولات عن تشكيل ما يعرف بـ(مؤتمر دمشق) عام ١٨٧٨م ناقشوا فيه المخاطر التي تتعرض لها البلاد العثمانية وضرورة اتخاذ موقف مناسب لذلك واتفقوا على :

١- اختيار الأمير عبد القادر الجزائري رئيساً لهذه الحركة وتتم البيعة له من أهل البلاد جميعاً.
٢- الإبقاء على الخلافة العثمانية كرابطة روحية ، فيبقى الخليفة العثماني خليفة للمسلمين .
٣- المضي قدماً في تهيئة الأسباب وتمهيد الأجواء لإعلان استقلال البلاد ، وارسال الوفود إلى الدول الأوربية للعمل على كسب تأييد دولها للقضية الاستقلالية التي يسعون اليها[٩٧].

وتنفيذاً لمقررات هذا المؤتمر قام الأمير عبد القادر والوجهاء المنضوين في هذه الحركة بجولة في المدن الشامية للدعاية ونشر أهداف حركتهم السياسية[٩٨].

في نفس هذا الوقت تلقى الأمير عبد القادر عدداً من الرسائل الموجهة من الزعيم اللبناني

الماروني يوسف كرم [٩٩] يكشف فيه عن تفاصيل مشروع "استقلالي" عربي – شامي يطرحه على الأمير عبد القادر ، بعد إخفاقه في إقناع الحكومة الفرنسية بتبني مشروع تسميته حاكماً على متصرفية جبل لبنان [١٠٠].

بعد أن استعرض يوسف كرم للأمير في رسائله الأوضاع الدولية والإقليمية التي تمر الدولة العثمانية بها تقدم بمشروع يرمي إلى إحياء السلطنة العربية متعهداً بان يقنع الطوائف النصرانية في بلاد الشام بالتخلي عن طلب الحماية من الدول الأوربية مؤكداً أن لا سبيل لانقاذ البلاد العربية إلا باتحادها تحت راية الأمير عبد القادر ، ومقترحاً في الوقت نفسه إرسال وفود إلى العواصم الأوربية للحصول على دعمها في تحقيق هذه الغاية ، داعياً إلى بث ونشر فكرة الاستقلال عن الدولة العثمانية والاتحاد بين الولايات العربية [١٠١] .

واقترح يوسف كرم على الأمير عبد القادر مشروعاً (كونفدرالياً) عربياً ، يقضي بتعيين الأمير عبدالقادر أمراءَ مستقلين على الأقاليم العربية بحيث يدفعون أموالا مقررة إليه ويوحدون صفوفهم تحت رايته ، حتى لا تتدخل الدول الأجنبية في الشؤون الداخلية للعرب ، كما طالبه بان يسعى في بث روح الألفة والمحبة بين العرب مؤكداً على ضرورة أن يكون لأعيان دمشق دور في مسالة تعيين الأمير[١٠٢].

يتضح مما سبق أن الأفكار والمناقشات التي سادت الأجواء في بلاد الشام لم تكن بعيدة عن اهتمامات الأمير عبد القادر، وكان لضعف الدولة العثمانية وتكالب الدولة الاستعمارية لاقتسام ممتلكاتها ، من ابرز العوامل التي دفعت بالقوى السياسية إلى التفكير جدياً بالانفصال عن الدولة العثمانية . ومع هذا يلاحظ أن الأمير عبد القادر لم يشأ العمل بصورة علنية واضحة لتحقيق هذا المشروع على غرار نشاطات بقية الجمعيات والحركات السياسية المناوئة للدولة العثمانية ، ولا ننسى أن انتهاء الحرب الروسية – العثمانية ساهمت في تأجيل المشاريع السياسية التي ظهرت في هذه المدة ، وفوق هذا وذاك ينبغي أن لا يغيب عن بالنا أن الأمير عبد القادر كان في ذلك الوقت يعد لاجئاً سياسياً مقيماً في دمشق ، وأن أي نشاط سياسي علني معادي للدولة العثمانية قد يعرضه للخطر أو النفي .

إن مكانة الأمير عبد القادر من الأهمية بمكان أن شخصيات سياسية مرموقة كانت تكتب له وتستشيره بشأن تأسيس الجمعيات ، كما فعل الصحفي الدمشقي الشهير أديب اسحق الذي أرسل كتاباً يخبر الأمير فيه عن نيته المشاركة في تأسيس جمعية (مصر الفتاة) في

الإسكندرية عام ١٨٧٧م [١٠٣] ، كما وأصبحت مجالس الأمير من ابرز المجالس التي يلجأ إليها الأعيان ورجال العلم لمناقشة قضاياهم السياسية والفكرية ، وأصبحت مكتبة الأمير من أشهر المكتبات المشهورة والمعروفة بدمشق[١٠٤] . وكانت ملكته العلمية والفكرية خير معين له في نشاطه السياسي والفكري ، كما درّس المنطق والتصوف في دمشق وله كتاب مشهور في التصوف أطلق عليه (**المواقف**) وهو كتاب في التصوف [١٠٥] .

أقام الأمير عبد القادر آخر أيامه في قصر (دُمّر) في دمشق وكانت معيشته في غاية البساطة مع الأناقة ، وقد اشتد عليه المرض وكان ولده محمد يرعاه طيلة مدة مرضه حتى وافاه الأجل في ٢٤ أيار/ مايس ١٨٨٣م ، وصُلّي عليه في الجامع الاموي ، ودفن بقرب الشيخ محي الدين بن عربي ، الذي طالما كان يدافع عنه ويتبنى آراءه [١٠٦] . فانتهت بذلك حياة رجل عاش نحو ستة وسبعين عاماً قضى جلها في نشاط وجهاد سياسي وعسكري قل نظيره واستحق قول المارشال سولت [١٠٧] (N. Soult) عام ١٨٤٠م عندما قال :" لا يوجد ألان أحد في العالم يستحق أن يلقب بـ "الاكبر" إلا ثلاثة كلهم مسلمون هم : الأمير عبد القادر ومحمد علي باشا والشيخ شامل "[١٠٨].

الاستنتاجات

تبين من خلال البحث عن شخصية الأمير عبد القادر الجزائري ونشاطه السياسي ان الامير عبد القادر يعد واحدة من الشخصيات البارزة التي أدت دوراً سياسيا وعسكرياً خطيراً ، ليس على مستوى الجزائر او الوطن العربي فحسب، بل ان شهرته وصلت الى معظم دول العالم لاسيما العالم الغربي، لذا كان لابد من التركيز عليه وتناول نشاطه وجهوده لاسيما خلال اقامته في دمشق التي تعد ضرورية للكشف عن جوانب غامضة من تاريخ النشاط السياسي لهذا الرجل.

لقد بدا واضحاً من خلال البحث أن الأمير عبد القادر قد تأثر بالأوضاع الفكرية التي سادت فرنسا أثناء مدة نفيه فيها والمعاملة التي حظي بها طيلة مدة اقامته ، ولا شك أن تلك السنوات الست التي قضاها في فرنسا جعلته يغير الكثير من المواقف التي كان يتبناها إبان مدّة وجوده في الجزائر ويقودنا هذا الأمر بالتالي إلى قناعة بان حياة الأمير بعد ذلك ، لاسيما إقامته في دمشق تطورت في رؤاها ومواقفها ؛ بيد أن هذا التطور الفكري قاد الى حصوله على احترام الفرنسيين كما اختلفت رؤيته تجاه فرنسا التي لم تعد بالنسبة له عدو بل صديق وصديق حميم كذلك.

وقد انعكس هذا التطور على سلوكه السياسي ، فبعد ان اختط طريق الكفاح والمقاومة المسلحة بوصفه الطريق الحيوي في حربه في الجزائر تحول كفاحه إلى نشاط ديني وسياسي ومدني أثناء اقامته في دمشق عكست فيها طبيعته الدينية المسالمة والمتسامحة التي تحلى بها لاسيما اثناء الازمات الطائفية التي اجتاحت بلاد الشام . وكان من نتيجة ذلك ان تعززت مكانته وحظي بالتقدير والتكريم من جهات سياسية وفكرية كثيرة وسارعت بعض القوى الغربية إلى الاستفادة من مكانته في تحقيق أغراضها السياسية.

وهكذا ثبّت الأمير عبد القادر نفسه كشخصية عسكرية في البداية وشخصية دينية وسياسية ومدنية في النهاية ليكون مثالاً يحتذى به عند أكثر من جهة.

الهوامش

(١) ينظر : محمد بن عبد القادر الجزائري ، تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر ، (بيروت : ١٩٦٤) : ١ / ٩٢٣.

(٢) القيطنة ، قرية تعبد ٢٨ كم غربي مدينة معسكر من مقاطعة وهران شمال غرب الجزائر ، اختطها جد الامير عبدالقادر واصبحت مركزاً ثقافياً ودينياً بفضل زاويتها القادرية ، هدمها الجنرال الفرنسي بوجو في أيلول / سبتمبر عام ١٨٤١م . مذكرات الأمير عبد القادر ، سيرة ذاتية ، تحقيق محمد الصغير بناني وآخرون (الجزائر : ٢٠٠٤) : ٤٨ .

(٣) جرجي زيدان ، تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر (بيروت : د/ت) : ١ / ٢٤٠-٢٤١؛ جلال يحيى ، العصور الحديثة وهجوم الاستعمار (القاهرة : ١٩٦٦) : ٣ : ١٤١.

(٤) مذكرات الأمير عبد القادر ، المصدر السابق : ٤٩ ؛ يحيى بو عزيز ، بطل الكفاح الأمير عبد القادر الجزائري (تونس : ١٩٥٧) : ٣٥-٤١.

(٥) للاطلاع على اسماء مشايخه ينظر : مذكرات الأمير عبد القادر ، المصدر نفسه : ٥٠-٥٨ .

(٦) جمع الأمير عبد القادر مكتبة قدّر ثمنها بنحو خمسة آلاف ليرة عثمانية وقد تم تدميرها على ايدي الفرنسيين أثناء الحرب ينظر : عبد الرحمن الجيلالي ، تاريخ الجزائر العام (بيروت : ١٩٨٠) : ٤ /٢٤٦.

(٧) أنجب الأمير منها عشرة بنين وست بنات أهمهم محمد (١٨٤٠-١٩١٣م) صاحب كتاب تحفة الزائر ، ومحي الدين الذي شارك في ثورة ١٨٧٠ في الجزائر ، والهاشمي الذي كان ابنه خالد أحد أبرز زعماء الحركة الوطنية الجزائرية في بداية القرن العشرين . ينظر : الجيلالي ، المصدر السابق : ٤ / ٢٤٢ .

(٨) أديب حرب ، التاريخ العسكري والاداري للأمير عبد القادر الجزائري ١٨٠٨-١٨٤٧ (الجزائر : ١٩٨٣) : ١ /٧١-٧٦.

(٩) حادثة المروحة ، وقعت في ٢٩ نيسان / أبريل ١٨٢٧م بين داي الجزائر حسين باشا والقنصل الفرنسي بيير دوفال وكانت الذريعة لاحتلال الجزائر ومفادها نزاع حول ديون جزائرية على فرنسا ازعجت الداي وكان للقنصل دور رئيس في استفزاز الداي فقام الداي وضرب القنصل بمروحة كان يهوّي بها نفسه ، فقدمت هذه الضربة مبرراً لفرنسا فقطعت العلاقات وضربت الحصار واحتلت الجزائر . ينظر : فلاديمير لوتسكي ، تاريخ الاقطار العربية الحديث (بيروت : ١٩٨٥) : ١٨٨.

(١٠) محمد فريد بك المحامي ، تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق أحسان حقي (بيروت : ٢٠٠٦) : ٤٤٧.

(١١) المعادة نسبة إلى حاكم ولاية وهران العسكري الفرنسي الذي عقد الهدنة مع الأمير عبد القادر اثر تكبد قواته خسائر فادحة وقد نصت المعاهدة على اعتراف فرنسا بإمارة عبد القادر على الجزائر مقابل اعتراف الأخير بسلطة فرنسا على مدن (الجزائر ، ومستغانم ، وهران ، وارزيو) ينظر : بو عزيز ، ثورات الجزائر في القرنين التاسع والعشرين (قسنطينة : ١٩٨٠) : ١٧-٢١ . وبحسب أحد المصادر فإن الهدف من المعاهدة كان لوضع الأمير عبد القادر تحت الوصاية أو الحماية الفرنسية ويجعلوا منه بطلاً ويستغلوا ذلك لتحقيق مآربهم . ينظر : شارل روبير آجيرون ، تاريخ الجزائر المعاصرة ، ترجمة : عيسى عصفور (بيروت : ١٩٨٢) : ٢٣ .

(١٢) شارل هنري تشرشل ، حياة الأمير عبد القادر ، ترجمة : أبو القاسم سعد الله (تونس : ١٩٧٤) : ٧٧-٨٠.

(١٣) حرب ، المصدر السابق : ١ /١١ ، ٣٢٣.

(١٤) المصدر نفسه : ١ / ١١.

(١٥) ابراهيم خليل أحمد ، تاريخ الوطن العربي في العهد العثماني ١٥١٦-١٩١٦(جامعة الموصل : ٢٠٠٥) : ٢٨٨.

(١٦) تشرشل ، المصدر السابق : ١١٥.

(١٧) وهي معاهدة التافنا الشهيرة في ٢٠ أيار / مايو١٨٣٧م والمؤلفة من خمسة عشر مادة تضمنت الاعتراف بسيادة الأمير عبد القادر على ثلثي الجزائر ودامت المعاهدة سنتين . بو عزيز، بطل الكفاح الأمير عبد القادر:٦٠-٦٤؛ آجيرون، المصدر السابق :٢٨.

(١٨) استغل الأمير الخلاف السياسي الناشب بين بريطانيا وفرنسا أثناء أزمة عام ١٨٤٠م حول الخلاف بين محمد علي باشا والدولة العثمانية حول بلاد الشام فسعى لإقامة صلات مع بريطانيا وقد كتب رسالة الى رئيس الوزراء بالمرستون في ديسمبر / كانون الأول ١٨٤١م يعرض فيها مصادقته معها لكن بريطانيا لم تشأ التورط خصوصاً بعد أن حققت ما تريد في طرد محمد علي باشا من بلاد الشام. الجيلالي، المصدر السابق، ج٤، ص١٨٧؛ عبد الكريم غلاب، قراءة جديدة في تاريخ المغرب العربي ، عصر الإمبراطورية العهد التركي في تونس والجزائر، (القاهرة، ١٩٥٧) : ٣ / ١٩-٢٠.

(١٩) ينظر : نص الرسالة الى السلطان عبد المجيد عام ١٨٤١ في ، تشرشل : المصدر السابق : ٣٠٧-٣١٣.

(٢٠) الجيلالي ، المصدر السابق : ٤ / ٢٣٧-٢٣٨.

(٢١) المصدر نفسه : ٢٤١-٢٤٢.

(٢٢) مذكرات الأمير عبد القادر ، المصدر السابق :١٩٠.

(٢٣) المصدر نفسه :٩٤ ؛ بو عزيز ، بطل الكفاح : ٧٥-٧٦.

(٢٤) تشرشل ، المصدر السابق :٢٥٠

(٢٥) تجدر الإشارة أن الحكومة الفرنسية عرضت نفس هذا العرض للحاج أحمد باي قسنطينة من قبل لكنه أبى وبقي في السجن حتى وفاته عام ١٨٥٠م. للتفاصيل ينظر: تشرشل، المصدر السابق :٢٥٠-٢٥١؛ أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الحديث وبداية الاحتلال(القاهرة، ١٩٧٠) :١٤١.

(٢٦) بو عزيز ، بطل الكفاح : ٧٩.

(٢٧) تشارلس لويس ولد عام ١٨٠٨ن ، ابن أخ نابوليون الأول ، أبوه ملك هولندا ، قاد حركة البونابرتيين ضد ملكية تموز في الثلاثينيات ، أسمه يثير التوق إلى اسطورة نابليون بونابرت ، انتخب رئيساً للجمهورية الثانية في كانون الأول / ديسمبر ١٨٤٨م ثم امبراطور عام ١٨٥٢ ، خسر المعركة امام بروسيا وأودع السجن حتى وفاته ١٨٧٣ م .ينظر : آلان بالمر ، موسوعة التاريخ الحديث ١٧٨٩-١٩٤٥ ، ترجمة سوسن فيصل السامر ويوسف محمد أمين ، (بغداد : ١٩٩٢) : ٢ /١٣٠-١٣٢.

(٢٨) تشرشل ، المصدر السابق : ٢٥٦.

(٢٩) مذكرات الأمير عبد القادر ، المصدر السابق : ١٩٤.

(٣٠) تشرشل ، المصدر السابق : ٢٥٦.

(٣١) تشرشل ، المصدر السابق : ٢٥٦؛ بو عزيز ، بطل الكفاح : ٩٢-٩٥.

(٣٢) مدينة في تركيا الآسيوية تعد مستودع لتجار استانبول ، كانت عاصمة العثمانيين في عهد السلطان أورخان بن عثمان (١٢٨١-١٣٥٩م) أحرقها تيمورلنك (١٣٣٦-١٤٠٥م) عام ١٣٧٧ وأعاد السلطان محمد الفاتح (١٤٢٩-١٤٨١م) بناءها . للتفاصيل ينظر : س. موستراس ، المعجم الجغرافي للأمبراطورية العثمانية ، ترجمة عصام محمد الشحادات (بيروت : ٢٠٠٢) : ١٥٧-١٥٨

(٣٣) تشرشل ، المصدر السابق :٢٧٤-٢٧٦ ؛ زيدان ، المصدر السابق : ١/١٩-٢٥.

(٣٤) تشرشل ، المصدر السابق : ٢٧٥-٢٧٦

(٣٥) كان الجنيه يساوي تقريباً ١١١ قرشاً عثمانياً ، وهذا يعني أن مخصصات الأمير بلغت نحو ٤٤٤ ألف قرش أي ٤٤٤٩ ليرة عثمانية . للتفاصيل ينظر : خليل اينالجيك ودونالد

كوترات (محرران) ، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للدولة العثمانية ، ترجمة : قاسم عبده قاسم ، (بيروت : ٢٠٠٧) : ٢ / ٧٧٠-٧٧٤.

(٣٦) بو عزيز ، المصدر السابق : ٨٣ .

(٣٧) بدأت الحرب في ٣ تموز/ يوليو عام ١٨٥٣م باعتداء القوات الروسية على الأراضي العثمانية، وكانت مطاليبها اعتراف الدولة العثمانية بحقوق الارثوذكس في الاماكن المقدسة للنصارى في القدس، وتنحية الرهبان الكاثوليك، وقد انضمت بريطانيا وفرنسا في اذار/ مارس ١٨٥٤م الى جانب الدولة العثمانية ، فانهزمت القوات الروسية ، وتوفي القيصر نقولا الاول عام ١٨٥٥م ، فوقّع ابنه الكسندر الثاني معاهدة الصلح في٣٠ اذار/ مارس ١٨٥٦م . محمد مصطفى صفوت: محاضرات في تاريخ المسألة الشرقية ومؤتمر باريس (القاهرة، ١٩٥٨) :٤٦-٥١.

(٣٨) تشرشل ، المصدر السابق : ٢٧٦.

(٣٩) بو عزيز ، المصدر السابق : ٨٤ .

(٤٠) تشرشل ، المصدر السابق : ٢٧٦- ٢٧٧.

(٤١)المصدر نفسه : ٢٧٧ .

(٤٢) عبد الجليل التميمي ، الأمير عبد القادر الجزائري في السنوات الأولى من إقامته بدمشق (١٨٥٥-١٨٦٠م) ، المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ، تشرين الثاني – ٣ كانون الأول (١٩٧٨: دمشق) : ٢/٤٢٤.

(٤٣) تشرشل ، المصدر السابق : ٢٧٧.

(٤٤) المصدر نفسه : ٢٧٨ ؛ زيدان ، المصدر السابق : ١ /٢٥١.

(٤٥) تيسير خليل الزواهرة ، تاريخ الحياة الاجتماعية في لواء دمشق من ١٨٤٠-١٨٦٤م / ١٢٥٥-١٢٨٢هـ (جامعة مؤتة : ١٩٩٥) : ٢٦ .

(٤٦) بشير زهدي ، " دمشق في منتصف القرن التاسع عشر " وقائع الندوة العلمية لأسبوع دمشق الآثاري للفترة ٢٦-٣٠ نيسان : ١٩٨٠ ، بحث منشور في كتاب : دمشق دراسات تاريخية وآثارية (دمشق: ١٩٨٠) :٧٠

Bruno Etienne; Abdelkaderis the me des is the mes(paris-1994)p. 86

(٤٧) وهذه الائلات هي : العجلاني والغزي والكيلاني والحسيبي . ينظر : فيليب شكري خوري ، طبيعة السلطة السياسية وتوزعها في دمشق ١٨٦٠-١٩٠٨ ، ترجمة : زهير السمهوري ، بحث منشور في المؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام ١٩٧٨ ، (دمشق : ١٩٧٩) : ٤٦٤.

(٤٨) لإعطاء فكرة تقريبية لما يتقاضاه الأمير عبد القادر آنذاك وصل بحسب أحد المصادر فيأن راتب صياد المرجان السنوي كان يبلغ عام ١٨٦٣ نحو (٢٥٠) فرنك بمعنى أن الأمير عبد القادر كان يتقاضى مبلغ وقدره (٦٠٠) مرة قدر صياد المرجان . ينظر : التميمي ، المصدر السابق : ٤٥٠.

(٤٩) الزواهرة ، المصدر السابق : ٥٢، ١٠٣، ١٠٨.

(٥٠) التميمي ، المصدر السابق : ٤٧ .

(٥١) مقتبس عن التميمي ، المصدر السابق : ٤٢٨.

A.e, Turquie , Damas, 1857, vol.5.

(٥٢) التميمي ، المصدر السابق : ٤٢٨.

(٥٣) زيدان ، المصدر السابق : ٢٥١/٢ .

(٥٤) للتفاصيل ينظر : محمود صالح سعيد ، المسألة اللبنانية ، لبنان في السياسة الأوربية ١٨٤٠-١٨٦١م (الموصل : ٢٠٠٩) : ١٩٩-٢١٦.

(٥٥) يوسف مزهر ، تاريخ لبنان العام (بيروت : د/ت) : ١ / ٦١٨-٦٢٠.

(٥٦) عبد الله حنا ، حركات العامة الدمشقية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (بيروت : ١٩٨٥) : ٢٥٦-٢٥٧.

(٥٧) الزواهرة ، المصدر السابق : ٢٠٦-٢٠٨.

(٥٨) حنا ، المصدر السابق : ٢٥٨-٢٥٩ ؛ الزواهرة ، المصدر السابق : ٢٠٤ .

(٥٩) شكا يهود مدينة تلمسان الجزائرية من الضرائب المفروضة عليهم من الادارة الفرنسية فما كان من الأمير إلا أن يجهز حملة عسكرية لطرد القوات الفرنسية من المدينة وتخليص اليهود من الضرائب . زيدان ، المصدر السابق : ١ / ٢٤٤.

(٦٠) محمد أبو السعود الحسيبي ، حادثة دمشق سنة ١٢٦٠، مخطوطة في المكتبة الظاهرية بدمشق برقم (٤٦٦٨) ، نشرها بتحقيق كمال الصليبي ، مجلة الأبحاث الجامعة الامريكية (بيروت : ١٩٦٨) العدد ٢٢: ٧

(٦١) تشرشل ، المصدر السابق : ٢٨١ ؛ الزواهرة ، المصدر السابق : ٢٠٩.

(٦٢) بو عزيز ، المصدر السابق : ٨٤.

(٦٣) تشرشل ، المصدر السابق : ٢٨١.

(٦٤) التميمي ، المصدر السابق : ٤٣٠ . وقد أجاب بعض العلماء والشيوخ على دعوة الأمير هذه بالنقد وقالوا له :" اننا لا نسمع أقوالكم ، فهي بالنسبة إلينا مشبوها فيها-كذا- . وانك بعد أن أسلمت بلادكم إلى الفرنسيين ، تريدون أيضا أن تسلموا بلادنا" وهذا يعكس بوضوح الجو المشحون وان ثمة من يعارض توجهات الأمير السلمية. نفسه، ص٤٥٢.

(٦٥) تشرشل ، المصدر السابق: ٢٨٢.

(٦٦) المصدر نفسه : ٢٨٣

(٦٧) التميمي ، المصدر السابق : ٤٣٠، ٤٥٢.

(٦٨) حول فكرة تهجير الموارنة إلى الجزائر ينظر : سعيد ، المصدر السابق : ١٧١-١٧٣.

(٦٩) التميمي ، المصدر السابق : ٤٥٢-٤٥٣.

(٧٠) تشرشل ، المصدر السابق :٢٨٣ ؛ الزواهرة ، المصدر السابق : ٢٠٩.

(٧١) مجلة الهلال ، الأمير عبد القادر الجزائري مجلد ١ : ٦ /٢٥١.

(٧٢) تشرشل ، المصدر السابق : ٢٨٥-٢٨٦.

(٧٣) وآل حمزة من الأسر الدمشقية الشهيرة انتزعت منصب مفتي الأحناف نهاية القرن الثامن عشر من أسرة آل المرادي وتنافسوا مع أسرة آل العجلاني على نقابة الأشراف خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وقد تم تكريمهم على هذه المواقف من الحكومة الفرنسية والأمير عبد القادر . للتفاصيل ينظر : حنا ، المصدر السابق : ٣٠٨ ؛ التميمي ، المصدر السابق : ٤٣٧-٤٣٨.

(٧٤)تشرشل ، المصدر السابق :٢٨٥ ؛ زيدان ، المصدر السابق : ١ / ٢٥٢.

(٧٥) تشرشل ، المصدر السابق : ٢٨٣.

(٧٦) الجزائري ، تحفة الزائر : ٦٥٩.

(٧٧) مجلة الهلال ، المصدر السابق : ٦/٢٥٥-٢٥٦. وتجدر الاشارة أن الحكومة الفرنسية كافأة الجزائريين والشاميين الذين ساهموا في ارجاع الأمن إلى نصابه ، فأهدت إلى البعض أوسمة والبعض الآخر مكافآت مالية ، وكان نحو واحد وستين شخصاً من الجزائر حصلوا على التكريم وخمسة من الشاميين حصلوا على الهدايا وعلى رأسهم الشيخ محمود أفندي والشيخ صالح آغا المهايني . للتفاصيل ينظر : التميمي ، المصدر السابق : ٤٣٧-٤٣٨.

(٧٨) تجدر الاشارة أن جمعية البنائين الأحرار الماسونية فر فرنسا أرسلت إلى الأمير نجماً كبيراً في محاولة منها لاستمالته ، كما إن الزعيم القوقازي شامل الداغستاني (١٧٩٧-١٨٧١م) أرسل من منفاه في روسيا يمجد عمل الأمير البطولي ويشيد بدوره في حماية النصارى . وقد تدخل الأمير عبد القادر لدى القيصر الروسي والامبراطور الفرنسي لأطلاق سراح الشيخ شامل وقد تم له ما اراد . ينظر : الجزائري ، تحفة الزائر : ٦٢٢-٦٦٥ ؛ محمود عبد الرحمن ، تاريخ القوقاز ، نسور الشيشان في مواجهة الدب الروسي (بيروت : ١٩٩٩) : ٦٤-٧٤.

(٧٩) أبو بكر محمد بن علي محي الدين الملقب بالشيخ الأكبر ، كاتب ومتصوف ولد في الاندلس وتوفي في دمشق ، غزير الإنتاج بلغت مؤلفاته نحو ١٥٠ مصنفاً ، يعد كتابه (الفتوحات المكية) من أشهرها . ينظر : شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، تحقيق : شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي ، (بيروت : ١٩٨٦) : ٢ / ١٩٧-٢٠٤.

(٨٠) زيدان ، المصدر السابق :١/٢٥٣-٢٥٤ ؛ عبد الوهاب الكيالي ، موسوعة السياسية (بيروت : ١٩٩٥) : ٦ / ١١٦.

(٨١) تشرشل ، المصدر السابق : ٢٩٢ ؛ بو عزيز ، المصدر السابق : ٨٧.

(٨٢) الماسونية ، ترجع أصل كلمة (Mason) إلى أنها كلمة فرنسية تعني بنائي الجدران ، وضع ميثاقها عام ١٧١٧م في ظاهرها علم ينشغل الباحث فيه بالبحث عن الحقيقة المقدسة وفي باطنها جمعية يهودية سرية انتشرت في معظم أنحاء العالم لخدمة الأهداف الصهيونية . للتفاصيل ينظر : وائل ابراهيم الدسوقي ، الماسونية والماسون في مصر ١٧٩٨-١٩٦٤(القاهرة : ٢٠٠٨): ١٧-١٨.

(٨٣) محفل الأهرام وهو أشهر محفل فرنسي تأسس في عام ١٨٤٥وكان مرخصاً به من الحكومة المصرية المحلية لعب دور كبير في نشر الماسونية في مصر والتحق به قسم كبير من رجالات البلاد منهم الأمير حليم باشا بن محمد علي باشا . ينظر : الدسوقي ، المصدر السابق : ٣٤.

(٨٤) تشرشل ، المصدر السابق : ٢٩٤ .

(٨٥) الوثيقة رقم ١٠ ينظر : التميمي ، المصدر السابق : ٤٤١.

(٨٦) الدسوقي ، المصدر السابق : ٧١.

(٨٧) وعن صورة الأمير عبد القادر مصوراً بالشارات الماسونية ينظر : سعيد الجزائري ، الماسونية ماضيها وحاضرها لغاية عام ٢٠٠٠ (بيروت : ١٩٩٢) : ٣٢٩ .

(٨٨) هذا إذا علمنا أن خديوي مصر اسماعيل باشا (١٨٦٣-١٨٧٩م) حذف من قائمة المدعوين عمداً ثلاثة من حكام المسلمين وهم : شريف مكة وباي تونس وشاه ايران . ينظر : دزموند ستيوارت ، تاريخ الشرق الأدنى الحديث (بيروت : ١٩٨٥) : ٢٠، ٤٩.

(٨٩) الجيلالي ، المصدر السابق : ٤ / ٢٤١.

(٩٠) مسعود ضاهر ، الجذور التاريخية للمسألة الطائفية اللبنانية ١٦٩٧-١٨٦١(بيروت : ١٩٨١) : ٢٩٥-٣٠٧.

(٩١) منير اسماعيل وعادل اسماعيل ، الصراع الدولي حول المشرق العربي ، الوثائق الدبلوماسية ، القسم الأول عهد الولاة في الدولة العثماني ١٧٧١-١٨٧٦(بيروت : ١٩٩٠) : ١ / ٥٣.

(٩٢) المصدر نفسه : ٥٣-٥٤.

(٩٣) المصدر نفسه : ٥٥.

(٩٤) المدر نفسه : ٥٥.

(٩٥) التميمي ، المصدر السابق : ٤٥٣.

(٩٦) فدوى أحمد محمود نصيرات ، المسيحيون العرب وفكرة القومية العربية في بلاد الشام ومصر ١٨٤٠-١٩١٨(بيروت : ٢٠٠٩) : ٢٧٤.

(٩٧) عادل الصلح ، سطور من رسالة ، تاريخ حركة استقلالية قامت في المشرق العربي سنة ١٨٧٧(بيروت : ١٩٦٦) : ٩٢-١٠١

(٩٨) المصدر نفسه : ١٠٢.

(٩٩) يوسف بطرس كرم ولد في ١٨٢٣ في بلدة أهدن واصبح حاكمها عينه وزير الخارجية العثماني فؤاد باشا عام ١٨٦٠ وكيل قائممقام أهدن وكان يوسف يطمح أن يكون متصرفاً على جبل لبنان ، اعتقل ونفي إلى استانبول عام ١٨٦١ ثم هرب عائداً الى الجبل فنشبت معارك مع العساكر العثمانية توسط على اثرها القنصل الفرنسي في بيروت وتم اخراجه من الجبل تحت الحماية الفرنسية عام ١٨٦٧ استقر في نابولي وتوفي عام ١٨٨٩ . ينظر : الكيالي ، المصدر السابق : ٧ / ٤٦٠-٤٦١.

(١٠٠) ينظر : محمود صالح سعيد عبد الله ، السياسة العثمانية تجاه متصرفية جبل لبنان ١٨٦١-١٩١٨ ، رسالة ماجستير غير منشورة (جامعة الموصل : ٢٠٠٤) : ١١٣-١١٥.

(١٠١) الصلح ، المصدر السابق : ١٠٦ ؛ نصيرات ، المصدر السابق : ٢٧٦.

(١٠٢) نصيرات ، المصدر السابق : ٢٧٦.

(١٠٣) محمد عزة دروزة ، مختارات قومية لمحمد عزة دروزة (بيروت : ١٩٨٨) : ٣٩٥.

(١٠٤) الجزائري ، المصدر السابق : ٨٢٣، ٨٣٤، ٨٤٠؛ الزواهرة ، المصدر السابق : ١٦٤.

(١٠٥) لوثورب ستودارد ، حاضر العالم الاسلامي ، ترجمة : شكيب ارسلان (بيروت : د/ت) : ١٧٣ ؛ بو عزيز ، بطل الكفاح : ١٩٢-١٩٥.

(١٠٦) الجزائري ، المصدر السابق : ٨٥٦-٨٦٣ ؛ الجيلالي ، المصدر السابق : ٤ / ٢٤١.

(١٠٧) نقولا سولت ولد عام ١٧٦٩وتوفي عام ١٨٥٥ مارشال فرنسا وقائد قواتها ووزير حرب في عهد الملك لويس الثامن عشر انضم الى قوات الجنراك نابوليون بونابرت ثم اصبح وزيراً للحر للاعوام ١٨٣٠-١٨٣٤ وترأس الحكومة الفرنسية ١٨٤٠-١٨٤٤.

P. Havery and L. Heseltine: The Oxford Companion to French literature(Oxford press, 1969)p.450 .

(١٠٨) بو عزيز ، المصدر السابق : ١٠٠.

The Political activity of prince Abdelkader Algezaery in Syria 1856-1883A.D.

Lec.Mahmood Saleh Saeed

Mosul University/ College of Arts

Abstract

Prince Abdelkader Algezaery is consider one of the most important individual , not only in Al-geria or Arab nation, but in the whole world too. He played many roles in Al-geria and Syria. Therfore, this research tries to explain the political role of prince Abdelkader Algezaery in Syria 1856-1883A.D after his decision to resident in Damascus. Specially his attitude in front of the events of year 1860 in Damascus and his tries to stop the blood war between people in Damascus and his atittued in view of the Arab movement and his role in" the Damascus meeting" in 1877A.D.